****



**مختصر تفسير الإمام ابن عطيَّة**

الجزء (20) = السورة رقْم (29)

**«سورة العنكبوت»**

اختصره

**وائل حافظ خلف**

**سورةُ العَنكَبوتِ**

هذه السورة مكِّيَّةٌ، إلَّا الصَّدرَ منها العَشْرَ الآياتِ؛ فإنها مدَنيَّةٌ، نزلت في شأن مَن كان مِن المسلمين بمكَّةَ، وفي هذا الفصل اختلاف، وهذا أصحُّ ما قيل فيه.

**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**

**﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) ﴾**

**﴿ الم ﴾** تقدَّمَ القول في الحروف المقطَّعة في أوائل السور.

**﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾** هذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكَّةَ، وكان الكفَّار من قريش يُؤْذُونهم ويعذِّبونهم على الإسلام، فكانت صدورُهم تَضِيقُ لذلك، ورُبَّما استُنكِر أن يُمكِّنَ الله الكفَرةَ من المؤمنين؛ فنزلت هذه الآية مُسَلِّيةً ومُعلِمةً أن هذه هي سيرة الله تعالى في عباده؛ اختبارًا للمؤمنين وفتنة؛ ليعلمَ الصادق ويرى ثواب الله له، ويعلم الكاذب ويرى عقابه إياه. وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب وفي هذه الجماعة، فهي بمعناها باقيةٌ في أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم، موجودٌ حُكْمُها بقيَّةَ الدهر؛ وذلك أن الفتنة من الله تعالى والاختبارَ باقٍ في ثغور المسلمين بالأَسْرِ ونكاية العدو وغير ذلك، وإذا اعتُبِر أيضًا كلُّ موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المِحَن، ولكن التي تُشْبِهُ نازلةَ المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدو في كل ثَغْرٍ.

**﴿ أَحَسِبَ ﴾** أظَنَّ **﴿ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ﴾** تقديره: بأن يقولوا. ويحتمِل أن يُقدَّرَ: لأن يقولوا **﴿ آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ \* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾** يريد بهم: المؤمنين مع الأنبياء في سالف الدهر.

**﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾** أي: لَيَظْهَرَنَّ عليهم ويُوجَدَنَّ منهم ما عَلِمَه أزَلًا؛ وذلك أن علمه بذلك قديم، وإنما هذه عبارة عن الإيجاد بالحالة التي تضَمَّنها العِلمُ القديم.

\*\*\*\*

**﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7) ﴾**

**﴿ أَمْ ﴾** معادلة للألف في قوله ﴿ أَحَسِبَ ﴾([[1]](#footnote-1)) [العنكبوت: 1]، وكأنه عز وجل قرَّر الفريقين؛ قرر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يُفتَنون، وقرر الكافرين **﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ﴾** في تعذيب المؤمنين وغيرِ ذلك على ظنهم أنهم يَسبِقون عِقابَ الله ويُعْجِزونه.

وقوله تعالى: **﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ﴾** وإنْ كان الكفَّارُ المرادَ الأوَّلَ بحسَبِ النازلة التي الكلامُ فيها؛ فإن لفظ الآية يَعُمُّ كلَّ عاصٍ وعامِلِ سيِّئةٍ من المسلمين وغيرِهم.

وقوله: **﴿ ساءَ ما يَحْكُمُونَ ﴾** يجوز أن يكون **﴿ مَا ﴾** بمعنى الذي؛ فهي في موضع رفع. ويجوز أن يكون في موضع نصب على تقدير: ساء حُكْمًا يَحكُمونه. وقيل: **﴿ مَا ﴾** مع **﴿ يَحْكُمُونَ ﴾** في موضع المصدر؛ كأنه قال: ساء حُكْمُهم.

وفي هذه الآية وعيدٌ للكفرة الفاتنين، وتأنيسٌ في وعده بالنصر للمؤمنينَ المفتونين المغلوبين.

ثم أخبَر تعالى عن الحشر والرجوع إلى الله تعالى في القيامة بأنه آتٍ؛ إذ قد أجَّلَه الله تعالى وأخبر به.

وفي قوله: **﴿ مَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ اللهِ ﴾** تثبيتٌ، أي: مَن كان على هذا الحق فلْيُوقِنْ بأنه آتٍ، وليَتزيَّدْ بصيرةً.

**﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾** لأقوال كل فِرقة، و**﴿ الْعَلِيمُ ﴾** بالمعتقَدات التي لهم.

وقوله تعالى: **﴿ وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾** إعلام بأن كل واحد مُجازًى بفعله، فهو إذًا له، وهو حظُّه الذي ينبغي ألا يُفرِّط فيه؛ فإن الله غنيٌّ عن جهاده، وغنيٌّ **﴿ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾** بأَسْرِهم.

وهاتان الآيتان نَبْذٌ على سواءٍ للطائفة المرتابة المترددة في فتنة الكفار، التي كانت تنكِر أن ينال الكفارُ المؤمنين بمكروه، وترتاب من أجل ذلك، فكأنهم قيل لهم: مَن كان يؤمن بالبعث فإن الأمر حقٌّ في نفْسِه، والله تعالى بالمرصاد، أي: هذه بصيرة لا ينبغي لأحد أن يعتقدها لوجه أحد، وكذلك مَن جاهد فثمرة جهاده له، فلا يَمُنَّ بذلك على أحد.

وقوله تعالى: **﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾** إخبار عن المؤمنين المهاجِرينَ الذين هم في أعلى رتبةٍ من البِدار إلى الله تعالى. نَوَّهَ بهم عز وجل وبحالهم؛ لِيُقيمَ نُفوسَ المتخلفين عن الهجرة، وهم الذين فتنهم الكفار إلى الحصول في هذه المرتبة.

والسيئات: الكفر وما اشتمل عليه، ويدخل في ذلك المعاصي من المؤمنين مع الأعمال الصالحات واجتناب الكبائر.

وفي قوله عز وجل: **﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** حذفُ مضافٍ([[2]](#footnote-2))، تقديرُه: ثوابَ أحسَنِ الذي كانوا يعملون.

**\*\*\***

**﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (11) ﴾**

قوله تعالى: **﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ ﴾** الآيةَ، رُويَ أنها نزلت في شأن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه؛ وذلك أنه هاجر فحلفت أُمُّه ألا تستظل بظل حتى يرجع إليها ويكفر بمحمد، فلَجَّ هو في هجرته([[3]](#footnote-3))، ونزلت الآية([[4]](#footnote-4)). وقيل نزلت في عَيَّاشِ بن أبي ربيعةَ؛ وذلك أنه اعتراه في دينه نحوٌ من هذا بعد أن خدعه أبو جهل([[5]](#footnote-5)) وردَّه إلى أُمِّه. ولا مِرْيةَ أنها نزلت فيمَن كان مِن المؤمنين بمكَّةَ يَشْقى بجهاد أبويه في شأن الإسلام أو الهجرة، فكان القصد بهذه الآية النهي عن طاعة الأبوين في مثل هذا؛ لعِظَمِ الأمر وكثرة الخطر فيه مع الله تعالى.

ثم إنه لما كان بِرُّ الوالدين وطاعتُهما من الأمر الذي قرَّرَتْه الشريعة وأكَّدت فيه، وكان من القويِّ عندَهم الملتزَمِ؛ قدَّمَ الله تعالى النهي عن طاعتهما.

وقوله: **﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾** على معنى: أنَّا لا نُخِلُّ ببر الوالدين، لكنا لا نسلطه على طاعة الله، لا سيما في معنى الإيمان والكفر.

وقوله تعالى: **﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾** وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر.

ثم كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين؛ ليُحَرِّكَ النفوسَ إلى نيل مراتبهم: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾**، وهذا مبالغة، على معنى: في الذين هم في نهاية الصلاح وأبعَدِ غاياته، وإذا تحصَّل للمؤمنين هذا الحُكْمُ تحصَّل ثَمَرُه وجزاؤه، وهو الجنة.

وقوله تعالى: **﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾** الآيةَ، إلى قوله: **﴿ الْمُنافِقِينَ ﴾** نزلت في قوم من المسلمين كانوا بمكَّةَ مختفين بإسلامهم، فلما خرج كفار قريش إلى بدر أخرجوا مع أنفسهم طائفةً من هؤلاء، فأُصيبَ بعضُهم، فقال المسلمون: كانوا أصحابَنا وأُكرِهوا، فاستغفروا لهم؛ فنزلَتْ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ الآيةَ [النساء: 97]، فكُتِبَ لِمَن بقيَ بمكَّةَ بهذه الآية، أي: لا عذر لهم، فخرَجوا، فلَحِقَهمُ المشركون فأَعْطَوْهُمُ الفِتنةَ ورَدُّوهم إلى مكَّةَ؛ فنزلت فيهم هذه الآية: **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾** الآيةَ، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا ويَئِسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: 110]، فكُتِب لهم بذلك أنَّ الله قد جعل لكم مَخرَجًا، فخرَجوا، فلَحِقَهم المشركون فقاتلوهم، فنجا مَن نجا، وقُتِل مَن قُتِل([[6]](#footnote-6)).

وقال ابن زيد: نزَل قوله تعالى: **﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ ﴾** في منافقينَ كفروا لَمَّا أُوذُوا([[7]](#footnote-7)).

وقوله تعالى: **﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ ﴾** أي: صعُب عليه أذى الناس حين صدوه، وكان حقه ألا يلتفت إليه، وأن يصبر له في جنب نجاته من عذاب الله.

ثم أزال تعالى موضع تعلقهم ومغالطتهم إن جاء نصر، ثم قرَّرهم على علم الله تعالى بما في صدورهم، أي: لو كان يقينًا تامًّا وإسلامًا خالصًا لَمَا توقَّفوا ساعةً، ولَرَكِبوا كلَّ هَولٍ إلى هجرتهم ودار نبيِّهم.

وهنا انتهى المدني في هذه السورة.

**\*\*\***

**﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13) ﴾**

**﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾** رُويَ أن قائل هذه المقالةِ الوليدُ بن المغيرة. وقيل: بل كانت شائعة من كفار قريش، قالوا لأتْباع النبي صلى الله عليه وسلم: ادخُلوا في أمرنا، وأَقِرُّوا بآلهتنا واعبدوها معنا، ونحن -لِيَقِينِنا أنه لا بعث بعد الموت ولا رُجوعَ- نتضمَّنُ لكم حَمْلَ خطاياكم فيما دَعَوْناكم إليه إن كان في ذلك دَرْكٌ([[8]](#footnote-8)) كما تزعمون أنتم!

وقولهم: **﴿ وَلْنَحْمِلْ ﴾** إخبار أنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالثقل، ولكنهم أخرجوه في صيغة الأمر؛ لأنها أوجَبُ وأشدُّ تأكيدًا في نفس السامع من المجازاة. ولِكَونِه خبرًا حَسُنَ تكذيبُهم فيه، فأخبر الله عز وجل أن ذلك باطل، وأنهم لو فعلوه لم ينحمل عن أحد من هؤلاء المغترين بهم شيءٌ من خطاياه التي تختصُّ به.

قال مجاهد: الحمل هو من الحَمالة([[9]](#footnote-9))، لا من الحَمْل على الظَّهر.

ثم أخبر تعالى عن أولئك الكفرة أنهم يحملون أثقالهم من كفرهم الذي يَجتَرِحونه ويَتلبَّسون به، **﴿ وأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ ﴾** يريد: ما يَلْحَقُهم من إغوائهم لعامَّتِهم وأتْباعِهم؛ فإنه يَلْحَقُ كلَّ داعٍ إلى ضلالةٍ كِفْلٌ منها، حسَبَ الحديث المشهور([[10]](#footnote-10)).

وقوله تعالى: **﴿ وَلَيُسْئَلُنَّ ﴾** يريد: على جهة التوبيخ والتقريع، لا على جهة الاستفهام والاستعلام.

**﴿ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾** معناه: يَختلِقون من الكفر، ودَعْوى الصاحبة والولد لله تعالى، وغير ذلك.

**\*\*\***

**﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15) ﴾**

قوله تعالى: **﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً ﴾** الآيةَ: قصة فيها تسلية لمحمد عليه السلام عما تضَمَّنَتْه الآياتُ قبْلَها من تعنُّت قومه وفتنتِهم للمؤمنينَ وغيرِ ذلك، وفيها وعيدٌ لهم بتمثيل أمرهم بأمر قوم نوح.

والواو في قوله: **﴿ وَلَقَدْ ﴾** عاطفةٌ جملةَ كلامٍ على جملة.

وقوله تعالى: **﴿ أَرْسَلْنا ﴾ ﴿ فَلَبِثَ ﴾** هذا العطف بالفاء يقتضي ظاهرُه أنه لَبِثَ هذه المُدَّةَ رسولًا يدعو، وقد يحتمل أن تكون المدةُ المذكورةُ مدَّةَ إقامته في قومه مِن لَدُنْ مولدِه إلى غرَقِ قومه. وكذلك يحتمل أن تكون وفاته عليه السلام عند غرق قومه بعد ذلك بيسير.

وقوله تعالى: **﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ ﴾** يقتضي أنه أخَذ قَومَه فقط، وقد اختُلِف في ذلك؛ فقالت فِرقةٌ: إنما غَرِقَ في الطوفان طائفةٌ من الأرض، وهي المختصة بقوم نوح. وقالت فِرقة -هي الجمهور-: إنما غَرِقَتِ المعمورةُ كلُّها.

**قال الإمام رحمه الله:** وهذا هو ظاهر الأمر؛ لاتِّخاذه السفينةَ، ولبعثه الطيرَ يرتاد زوال الماء، ولغير ذلك من الدَّلائلِ.

و**﴿ الطُّوفانُ ﴾** العظيمُ الطَّامي([[11]](#footnote-11))، ويُقالُ ذلك لكل طامٍ خرج عن العادة؛ من ماء أو نار أو موت. وطُوفان: وَزْنُه فُعْلانُ، بِناءُ مُبالَغةٍ مِن طافَ يَطوفُ؛ إذا عمَّ من كل جهة، ولكنه كثُر استعمالُه في الماء خاصَّةً.

وقوله تعالى: **﴿ وَهُمْ ظالِمُونَ ﴾** يريد: بالشرك.

**﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ ﴾** هم بَنُوهُ، وقومٌ آمَنوا معه.

والضمير في قوله: **﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾** يحتمل أن يعود على **﴿ السَّفِينَةِ ﴾**، ويحتمِلُ أن يعود على العقوبة، ويحتمل أن يعود على النجاة.

**﴿ آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾** الآية هنا: العِبْرةُ على قدرة الله تعالى في شدة بطشه. قال قَتادةُ: أبقاها آيةً على الجُودِيِّ.

**\*\*\***

**﴿ وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) ﴾**

يجوز أن يكون (إبراهيم) معطوفًا على (نوح)، ويجوز أن يكون معطوفًا على الضمير في ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ [العنكبوت: 15]، ويجوز أن ينصبَه فِعلٌ تقديرُه: واذكُرْ إبراهيمَ.

وهذه القصة أيضًا تمثيل لقريش، وكان نُمْرُودُ وأهلُ مدينته عَبَدةَ أصنامٍ، فدعاهم إبراهيم عليه السلام إلى توحيد الله تعالى وعبادته، ثمَّ قرر لهم ما هم عليه من الضلال.

واختُلِف في معنى **﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾**؛ فقيل: هو نَحْتُ الأصنامِ وخَلْقُها؛ سمَّاها **﴿ إِفْكًا ﴾** توسُّعًا من حيث يَفتَرون بها الإفكَ في أنها آلهة. وقيل: هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان وغير ذلك.

ثم وَقَفَهم على جهة الاحتجاج عليهم بأمرٍ تَفْهَمُه عامَّتُهم وخاصَّتُهم، وهو أمر الرزق، فقرَّر أن الأصنام لا تَرزُقُ، وأمَرَ بابتغاء الخير عند الله تعالى. وخصَّص الرزقَ؛ لمكانته من الخَلْق، فهو جزء يدُلُّ على جنسه كلِّه.

**﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾** يقال: شَكَرْتُ لك وشَكَرْتُكَ، بمعنًى واحدٍ.

ثم أخبرهم بالمعاد والحشر إليه: **﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾**.

**\*\*\***

**﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) ﴾**

في قوله تعالى: **﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾** وعيدٌ، أي: قد كذَّب غيرُكم وعُذِّب، وإنما على الرسول البلاغُ، وكلُّ أحد بعدَ ذلك مأخوذٌ بعمله.

**﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾** هذه الإحالة هي على ما يظهر مع الأحيان من إحياء الأرض، والنبات وإعادته، ونحوِ ذلك ممَّا هو دليل على البعث من القبور والحشر. ويحتمل أن يريد: **﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾** بالدَّلائلِ والنظر كيف يجوز أن يُعيدَ اللهُ تبارك وتعالى الأجسامَ بعد الموت.

ثم أمر تعالى نبيه -ويحتمل أن يكون إبراهيمَ، ويحتمل أن يكون محمدًا إن كان في قصة إبراهيمَ اعتراضٌ بين كلامين- بأن يأمرهم -على جهة الاحتجاج- بالسير في الأرض، والنظرِ في كل قُطرٍ وفي كل أمَّة قديمًا وحديثًا؛ فإن ذلك يوجِدُ أنْ لا خالقَ إلا اللهُ تعالى، ولا يَبتدِئُ بالخَلْقِ سِواه، ثم ساق -على جهة الخبر- أن الله تعالى يُعيدُ ويُنشئ **﴿ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾**؛ نشأةَ القيام من القبور.

والبعث من القبور يقوم دليل العقل على جوازه، وأخبرت الشرائع بوُقوعه ووُجوده.

**\*\*\***

**﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (23) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25) ﴾**

**﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ ﴾** المعنى: يُيَسِّرُ من يشاء لأعمال مَن حقَّ عليه العذابُ، وييسر مَن يشاء لأعمال مَن سبقت له الرحمةُ؛ فيَتعلَّقُ الثواب والعقاب بالاكتساب المقترِنِ بالاختراع الذي لله تعالى في أعمال العبد.

ثم أخبر أن إليه المُنقَلَبَ، وأن البشر ليس بمُعجِزٍ ولا مُفلِتٍ **﴿ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ ﴾**، ويحتمل أن يريد بـ **﴿ السَّماءِ ﴾** الهواءَ علوًّا، أي: ليس للإنسان حيلةٌ صَعِدَ أو نزَل. ويحتمل أن يريد السماء المعروفة، أي: لستم بمعجزين في الأرضِ ولا ولو كنتم في السماء. وقيل: معناه: ولا مَن في السماء مُعجِزٌ إنْ عصى.

**قال الإمام رحمه الله:** والتأويل الأوسطُ أحسَنُها.

**﴿ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾** الوليُّ أخَصُّ من النَّصير.

وما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ ﴾ [العنكبوت: 19] إلى هذه الآيةِ المستأنَفةِ: يحتمل أن يكون خطابًا لمحمد، ويكونَ اعتراضًا في قصة إبراهيمَ. ويحتمل أن يكون خطابًا لإبراهيمَ ومُحاوَرةً لقومه، وعند آخِرِ ذلك ذكر جواب قومه.

**\*\*\***

**﴿ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (25) ﴾**

أخبَرَ الله تعالى عنهم أنهم لَمَّا بَيَّنَ إبراهيمُ الحُجَجَ، وأوضح أمر الدِّين؛ رجعوا معه إلى الغلبة والقهر والغشم، وعَدَلوا عن طريق الاحتجاج حينَ لم يكن لهم قِبَلٌ به، فتأمروا في قتله أو تحريقه بالنار، وأنفذوا أمر تحريقه حسبَما قد اقتُصَّ في غير هذا الموضع.

**﴿ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾** أنجاه الله تعالى من نارهم بأنْ جعلها عليه بَرْدًا وسلامًا.

قال كعبُ الأحبارِ: ولم تحرق النارُ إلا الحبلَ الذي أو ثقوه به.

**﴿ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾** جعَل ذلك آيةً وعِبرةً ودليلًا على وحدانيَّته لِمَن شرَح صدرَه، ويَسَّرَه للإيمان، أي: هذا الصِّنفُ ينتفع بالآية، والكفار هي عليهم عَمًى، وإن كانت في نفْسِها آيةً للكل.

ثم ذكر تعالى أن إبراهيم عليه السلام قرَّرهم على أن اتِّخاذَهم الأوثانَ والأنصابَ إنما كان اتِّباعًا من بعضهم لبعض، وحِفظًا لِمَوَدَّاتِهم ومَحَبَّاتِهم الدُّنيويَّة، وأنهم يوم القيامة يجحد بعضُهم بعضًا ويتلاعنون؛ لأنَّ تَوادَّهم كان على غير تقوى، و﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: 67].

**\*\*\***

**﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27) ﴾**

**﴿ فَآمَنَ ﴾** معناه: فصَدَّقَ.

والقائل: **﴿ إِنِّي مُهاجِرٌ ﴾** هو إبراهيمُ عليه السلام. وقالت فِرْقةٌ: هو لوط عليه السلام.

وممَّا صح من القصص أن إبراهيم ولُوطًا هاجَرَا من قريتهما «كُوثَى»([[12]](#footnote-12)) وهي في سواد الكوفة من أرض بابِلَ، إلى بلاد الشام؛ فِلَسْطِينَ وغيرِها -وقال ابن جُرَيجٍ: إلى حَرَّانَ([[13]](#footnote-13))-، ثم أُمِرَا بعدُ إلى الشام، وفي هذه الهجرة كانت سارَةُ في صحبة إبراهيمَ، واعتَراهما أمرُ الملِك([[14]](#footnote-14)).

والمُهاجِرُ: النازع عن الأمر. وهو في عُرف الشريعة: من ترَكَ وطنه رغبةً في رضا الله تعالى. وقد ذهب بهذا الاسمِ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ الفتح.

وقوله: **﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾** مع الهجرة إليه: صِفَتانِ بليغتان، تقتضيان استحقاق التوكل عليه.

وفي قوله: **﴿ مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي ﴾** حذفُ مُضافٍ، كأنه يقول: إلى رضا ربِّي، أو نحو هذا.

**﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾** إسحاق بن إبراهيم، هو الذي بُشِّر به، وبُشِّرَ بيَعقوبَ مِن ورائه؛ فهو ولد إسحاقَ.

**﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾** الكتاب: اسم الجنس، أي: جعَل الله تعالى في ذرية إبراهيمَ جميعَ الكتب المُنزَلةِ؛ التوراة، والإنجيل، والزَّبور، والقرآن. وعيسى عليه السلام من ذريته.

وقوله: **﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾** يريد: في حياته، وبحيث أدرَك ذلك وسُرَّ به. والأجر الذي آتاه الله هو العافية من النار، ومن الملِك الجائر، والعملُ الصالح، والثناء الحسَنُ، وأن كل أمَّةٍ تَتَوَّلاهُ، والولدُ الذي قَرَّتْ به العينُ بحسَبِ طاعة الله.

ثم أخبر عنه أنه في الآخرة في عداد الصالحين: **﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾** الذين نالوا رضا الله، وفازوا برحمته وكرامته العُلْيا.

**\*\*\***

**﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) ﴾**

قوله تعالى: **﴿ وَلُوطًا ﴾** نُصِب بفعلٍ مُضْمَرٍ تقديرُه: واذكُرْ لُوطًا.

**﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾** الفاحشة: إتيان الرجال في الأدبار، وهي معصية ابتدعها قوم لوط عليه السلام.

**﴿ أَإِنَّكُمْ ﴾** تقدم القول فيها.

**﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾** اختلف الناس في قطع السبيل المشار إليه هاهنا؛ فقالت فِرقةٌ: كان قطع الطريق بالسلب فاشيًا فيهم، وقيل: كانوا يقطعون الطرق على الناس لطلَبِ الفاحشة، فكانوا يُخِيفون.

وقالت فرقة: بل أراد قطع سبيل النسل في ترك النساء وإتيان الرجال. وقالت فرقة: أراد أنهم لِقُبحِ الأُحْدُوثةِ عنهم([[15]](#footnote-15)) يَقطعون سُبُلَ الناس عن قصدهم في التجارات وغيرها.

**﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾** النادي: المجلس الذي يَجتمِع فيه الناسُ، وهو اسم جنسٍ؛ لأن الأندية في المدن كثيرةٌ، فكأنه قال: وتأتون في اجتماعكم حيث اجتمعتم.

واختلف الناس في المنكر؛ فقالت فرقة: كانوا يَخْذِفون الناس بالحَصْباءِ([[16]](#footnote-16))، ويَستخِفُّون بالغريب والخاطر عليهم، ولا يربطهم دينٌ ولا مروءة. وقيل: مُنكَرُهم أنهم كانوا يتفاعلون في مجالسهم. وقيل: كانوا يتضارطون ويتصافعون في مجالسهم. وقيل: الخذف ونبذ الحياء في جميع أمورهم.

وقد توجَد هذه الأمور في بعض عصاة أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فالتناهي واجبٌ.

فلما وقَفَهم لوط عليه السلام على هذه القبائحِ رجعوا إلى التكذيب واللَّجاج، فقالوا: ائْتِنا بالعذاب، أي: أن ذلك لا يكون، ولا تَقدِرُ عليه، وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مُصَمِّمون على اعتقاد كَذِبه، وليس يَصِحُّ في الفِطرة أن يكون معاندٌ يقول هذا!

ثم استنصر لوطٌ عليه السلام ربَّه عليهم، فبعث ملائكة لعذابهم ورجْمِهم بالحاصِبِ، فجاؤوا إبراهيمَ أولًا مبشِّرين بإسحاقَ، ومبشِّرينَ بنُصرةِ لوط على قومه، وكان لقاؤهم لإبراهيمَ على الصورة التي بُيِّنَتْ في غير هذه الآية، فلَفْظةُ البُشْرى في هذه الآية تتضمَّنُ أمرَ إسحاقَ ونُصْرةَ لوطٍ.

ولَمَّا أخبروه بإهلاك القرية على ظُلمِهم أشفَقَ إبراهيمُ على لوطٍ، فعارضهم بأمره حسبَما يأتي.

**\*\*\***

**﴿ قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (32) وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35) ﴾**

رُويَ عن ابن عبَّاسٍ([[17]](#footnote-17)) أن إبراهيم عليه السلام لَمَّا عَلِمَ مِن قِبَلِ الملائكة أن قرية لوط تُعَذَّبُ أشفق على المؤمنينَ، فجادل الملائكةَ، وقال لهم: أرأيتُم إن كان فيهم مِئةُ بيت من المؤمنين، أتَتْرُكونهم؟ قالوا: ليس فيهم ذلك. فجعَل ينحدر حتى انتهى إلى عَشَرةِ أبياتٍ، فقال له الملائكة: ليس فيهم عَشَرةٌ ولا خمسةٌ ولا ثلاثةٌ ولا اثنانِ. فحينَئذٍ قال إبراهيم عليه السلام: **﴿ قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً ﴾**([[18]](#footnote-18))، فراجعوه حينَئذٍ بأنَّا **﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها ﴾**، أي: لا تَخَفْ أن يقع حَيْفٌ([[19]](#footnote-19)) على مؤمن.

**﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ ﴾** امرأة لوط هذه كانت كافرةً تُعِينُ عليه، وتُنَبِّهُ على أضيافه.

**﴿ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ ﴾** الغابر: الباقي، ومعناه: مِن الغابِرينَ في العذاب. وقالت فِرْقةٌ: **﴿ مِنَ الْغابِرِينَ ﴾** أي: ممَّن عُمِّر وبقيَ من الناس، وعَسَا([[20]](#footnote-20)) في كفره.

**﴿ وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ**([[21]](#footnote-21)) **وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾** الضمير في **﴿ بِهِمْ ﴾** في الموضعين عائدٌ على الأضياف الرُّسلِ؛ وذلك لتَخَوُّفِه من قومه عليهم، فلما أخبَروه بما هم فيه فُرِّجَ عنه.

**﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ ﴾** الرِّجْزُ: العذابُ.

**﴿ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ ﴾** أي: عذابُهم بسببِ فِسْقِهم، وكذلك كل أُمَّةٍ عذَّبها الله فإنما عذَّبها على الفُسوقِ والمعصية، لكن بأن يَقترِنَ ذلك بالكفر الذي يوجِبُ عذابَ الآخرة.

**﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها ﴾** أي: مِن خبَرِها وما بَقِيَ مِن أثرها، فـ(مِن) لابتداء الغاية. ويصحُّ أن تكون للتبعيض، على أن يُريدَ ما تُرِك مِن بقايا بناءِ القريةِ ومنظرِها([[22]](#footnote-22)).

**﴿ آيَةً ﴾** الآيةُ: موضع العِبرة، وعلامة القدرة، ومُزْدَجَر النفوس عن الوقوع في سخط الله تعالى.

**\*\*\***

**﴿ وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (37) وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) ﴾**

نصب **﴿ شُعَيْباً ﴾** بفعلٍ مُضْمَرٍ يحسُنُ مع تقديره: بعَثْنا، أو: أرسَلْنا.

فأمَر شُعَيبٌ بعبادة الله تعالى، والإيمانِ بالبعث واليومِ الآخِرِ، ومع الإيمان به يصحُّ رجاؤُه. وذهب أبو عُبَيدةَ إلى أن المعنى: وخافوا.

و**﴿ تَعْثَوْا ﴾** معناه: تُفسِدون، يقال: عَثَا يَعْثُو، وعاثَ يَعِيثُ، وعَثِيَ يَعْثَى؛ إذا أفسَدَ.

وأهل مَدْيَنَ: قومُ شُعَيبٍ، هذا على أنها اسم البلدة. وقيل: مَدْيَنُ اسمُ القبيلة، وأصحابُ الأَيْكةِ غيرُهم([[23]](#footnote-23)). وقيل: هم بعضهم ومنهم؛ وذلك أن معصيتهم في أمر الموازين والمكاييل كانت واحدةً.

و**﴿ الرَّجْفَةُ ﴾** مَيْدُ الأرضِ بهم، وزلزلتُها عليهم، وتَداعيها بهم، وذلك نحوٌ من الخسف، ومنه الإرجافُ بالأخبار.

**﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ ﴾** الجُثومُ([[24]](#footnote-24)) في هذا الموضع تشبيهٌ، أي: كان هُمودُهم على الأرض كالجُثومِ الَّذي هو للطائر والحيوان.

وقوله: **﴿ وَعاداً ﴾** منصوب بفعلٍ مُضْمَرٍ تقديرُه: واذكُرْ عادًا. وقيل: هو معطوفٌ على الضمير في قوله: **﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ﴾**.

**﴿ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ ﴾** دل عز وجل على ما يُعطي العِبْرةَ في بقايا مَساكِنِهم، ورُسومِ منازلهم([[25]](#footnote-25))، ودُثورِ آثارِهم([[26]](#footnote-26)).

وقوله تعالى: **﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ﴾** عطف جملة من الكلام على جملة.

**﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾** السَّبيل هي طريق الإيمان بالله ورسله، ومنهج النجاة من النار. **﴿ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾** قيل: معناه: لهم بصيرةٌ في كفرهم، وإعجابٌ به، وإصرارٌ عليه، فذمَّهم بذلك. وقيل: لهم بصيرةٌ في أن الرسالةَ والآياتِ حقٌّ، لكنهم كانوا مع ذلك يَكفرون عِنادًا، ويَرُدُّهم الضَّلالُ إلى مَجاهِلِه ومَتالِفِه، فيجري هذا مَجرى قولِه تعالى في غيرهم: ﴿ وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ﴾ [النمل: 14].

وتزيين الشيطان هو بالوسواس ومناجاة ضمائر الناس، وتزيينُ اللهِ تعالى الشَّيءَ هو بالاختراع، وخَلْقِ محَّبتِه والتَّلبُّسِ به في نفْسِ العبد([[27]](#footnote-27)).

**\*\*\***

**﴿ وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (39) فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40) ﴾**

**﴿ وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ ﴾** نصب **﴿ قارُونَ ﴾** إمَّا بفعل مُضمَرٍ تقديرُه: اذكُرْ، وإمَّا بالعطف على ما تقدم.

وقارُونُ من بني إسرائيلَ، وهو الذي تقدمت قصَّتُه في الكنوز، وفي البغي على موسى بنِ عِمْرانَ عليه السلامُ.

وفِرعَونُ مشهور، وهامانُ وزيره، وهو مِن القِبْط.

**﴿ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ﴾** البيِّنات: المعجزات، والآيات الواضحة.

**﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ ﴾** أي: مُفلِتينَ مِن أخْذِنا وعِقابِنا. وقيل: معناه: سابِقينَ أولياءَنا. وقيل: معناه: ما كانوا سابِقينَ الأُمَمَ إلى الكفر، أي: قد كانت تلك عادةَ أُمَمٍ مع رُسُلٍ.

**﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً ﴾** قال ابن عباس: هم قوم لُوطٍ.

ويُشْبِهُ أن يَدخُلَ قومُ عاد في الحاصب؛ لأن تلك الرِّيحَ لا بد أنها كانت تَحصِبُهم بأمور مؤذية. والحاصب: هو العارض من ريح أو سحاب إذا رمَى بشيءٍ.

**﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾** الذين أخذتهم الصَّيحةُ قوم ثمود، قاله ابن عباس. وقال قَتادةُ: هم قوم شعيب.

**﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ ﴾** الخسف كان بقارونَ، قاله ابن عباس. ويُشْبِهُ أن يكون أصحابُ الرَّجْفةِ في هذا النوعِ من العذاب.

**﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا ﴾** الغرَقُ كان في قوم نوح، وفي فِرعونَ وحزبِه.

**﴿ وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾** ظُلْمُهم أنفُسَهم كان بالكفر، ووضْعِ العبادة في غيرِ موضعها.

وقُدِّم المفعولُ **﴿ أَنْفُسَهُمْ ﴾** على **﴿ يَظْلِمُونَ ﴾**؛ للاهتمام، وهذا نحو: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: 5].

**\*\*\***

**﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) ﴾**

شبَّهَ تعالى الكفار في عبادتهم الأصنام وبنائهم جميعَ أمورهم على ذلك بـ**﴿ الْعَنْكَبُوتِ ﴾** التي تبني وتجتهد وأمرها كلُّها ضعيف، متى مَسَّتْهُ أدنى هامَّةٍ أذهَبَتْه؛ فكذلك أمر أولئك وسَعْيُهم مُضْمَحِلٌ، لا قوَّةَ له ولا مُعتمدَ.

وقوله: **﴿ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ ﴾** أي: يَعْلَمونَ أن هذا مَثَلُهم، وأن حالهم ونِسبتَهم من الحق هذه الحالُ.

وقوله: **﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾** قيل: معناه: أن الله يعلم الذين يَدْعون من دونه من جميع الأشياء أن حالهم هذه، وأنهم لا قدرة لهم. وقيل: قوله: **﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾** إخبار تامٌّ، وقوله: **﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾** متصِلٌ به، واعتُرض بين الكلامين: **﴿ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾**؛ وعليه فإمَّا أن تكون **﴿ مَا ﴾** نافيةً، أي: لَسْتُم تَدْعون شيئًا له بالٌ ولا قَدْرٌ ولا خَلاقٌ فيَصْلُحَ أن يُسمَّى شيئًا([[28]](#footnote-28))، وإما أن تكون **﴿ مَا ﴾** استفهامًا، كأنه قرر على جهة التوبيخ على هذا المعبود من جميع الأشياء ما هو إذ لم يكن الله تعالى؟! أي: ليس لهم على هذا التقرير جواب مقنع البتَّةَ. وقال أبو عليٍّ([[29]](#footnote-29)):**﴿ مَا ﴾** استفهام نصب بـ **﴿ يَدْعُونَ ﴾**، ولا يجوز نصبها بـ**﴿ يَعْلَمُ ﴾**، والتقدير: أن الله يعلم أوثانًا تدعون من دونه أو غيره لا يخفى ذلك عليه.

وقوله: **﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ ﴾** إشارة إلى هذا المثَل ونحوِه، و**﴿ نَضْرِبُها ﴾** مأخوذ من الضرب، أي: النوع، كما تقول: هذان من ضرب واحد، وهذا ضَرِيبُ هذا، أي: قرينُه وشبيهُه، فكأن ضرَب المثَل هو أن يُجعل للأمر المُمَثَّلِ ضَريبٌ.

**\*\*\***

**﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) ﴾**

نبَّهَ في ذِكرِ خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ على أمر يوقع الذهن على صِغَرِ قدر الأوثان وكلِّ معبود من دون الله.

وقوله تعالى: **﴿ بِالْحَقِّ ﴾** أي: بالواجب النَّيِّر، لا للعبث واللعب، بل لِيَدُلَّ على سلطانه، ويُثبِتَ شرائعه، ويَضَعَ الدَّلالاتِ لأهلها، ويَعُمَّ بالمنافع، إلى غير ذلك مما لا يُحصى عدًّا.

ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بالنفوذ لأمره، وتلاوةِ القرآن الذي أوحي إليه، وإقامة الصلاة، أي: إدامتها والقيام بحدودها، ثم أخبر حكمًا منه **﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى ﴾** صاحبَها وممتثلَها **﴿ عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾**؛ وذلك بأن المصلِّيَ إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات، وتذكُّرِ الله تعالى، وتوهُّمِ الوقوف بين يدَيِ العَظَمة، وأن قلبه وإخلاصه مُطَّلَعٌ عليه مَرْقوبٌ؛ صلَحَتْ لذلك نفْسُه وتذلَّلَتْ، وخامرها ارتقابُ الله تعالى، فاطَّرَدَ ذلك في أقواله وأعماله، وانتهى عن الفحشاء والمنكر، ولم يَكَدْ يَفْتُرُ من ذلك حتى تُظِلَّه صلاةٌ أخرى يرجع بها إلى أفضلِ حاله.

فهذا معنى هذا الإخبار؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون. وقد رُويَ عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفرَّ لونه، فكُلِّم في ذلك، فقال: «إني أقف بين يدي الله تعالى، وحُقَّ لي هذا مع ملوك الدنيا، فكيف مع ملك الملوك؟!»([[30]](#footnote-30)). فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر([[31]](#footnote-31)).

ومَن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل؛ فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقة معاصٍ تُبعده من الله ترَكَتْه الصلاةُ يَتمادى على بُعده.

وقوله تعالى: **﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾** قال جماعة: معناه: ولَذِكْرُ اللهِ إياكم أكبرُ من ذكركم إياه. وقيل: معناه: ولَذِكْرُ اللهِ أكبرُ مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر. وقيل: معناه: ولَذِكْرُ اللهِ أكبرُ من كل شيء. قيل لِسَلْمانَ رضي الله عنه: أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ فقال: أما تقرأ القرآنَ: **﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾**([[32]](#footnote-32)).

ومنه حديثُ «المُوَطَّأ» عن أبي الدَّرْداءِ رضي الله عنه: «ألَا أُخبِرُكم بخيرِ أعمالِكم، وأرفَعِها في دَرَجاتِكم، وأَزْكاها عندَ مَلِيكِكُم، وخَيرٍ لكم مِن إعطاء الذَّهَبِ والوَرِقِ، وخيرٍ لكم مِن أنْ تَلْقَوْا عدوَّكم فتَضرِبوا أعناقَهم ويَضرِبوا أعناقَكم؟»، قالوا: بلى، قال: «ذِكرُ الله تعالى»([[33]](#footnote-33)).

وقيل: معناه: ولَذِكْرُ اللهِ كبير. كأنه يحضُّ عليه في هذين التأويلين الأخيرين.

**قال الإمام رحمه الله:** وعندي أن المعنى: ولَذِكْرُ اللهِ أكبَرُ على الإطلاق؛ أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر مراقب، وثواب ذلك الذِّكْرِ أن يَذكُرَه اللهُ تعالى، كما في الحديث: «**ومَنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ، ذَكَرْتُه في مَلَإٍ خَيرٍ منه**»([[34]](#footnote-34)).

والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهي، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله تعالى، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى، وذكر الله تعالى العبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه؛ قال الله عز وجل: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: 152].

وقوله: **﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾** هذا ضرب من التوعد والحث على المراقبة.

**\*\*\***

**﴿ وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46) ﴾**

اختلف المفسِّرون في المراد بهذه الآية؛ فقيل: معناها: لا تجادلوا من آمن بمحمد من أهل الكتاب، فكأنه قال: أهل الكتاب المؤمنين **﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾** أي: الموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك. وقوله تعالى على هذا التأويل **﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾** يريد به: مَن بقيَ على كفره منهم، كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم.

والآية على هذا محكمة غير منسوخة.

وقيل: المراد بأهل الكتاب: اليهودُ والنصارى الباقون على دينهم، أمَرَ اللهُ تعالى المؤمنين ألا يجادلوهم إلا بالتي هي أحسن؛ من الدعاء إلى الله تعالى، والتنبيه على آياته، وأن يزال معهم عن طريق الإغلاظ والمخاشنة، وقوله على هذا التأويل **﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾** معناه: ظلموكم، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق، يراد بهم من لم يؤد جزية الحرب، ومن قال وصرح بأن لله ولدًا، أو له شريك، أو يده مغلولة.

فالآية على هذا منسوخة في مهادنة مَن لم يحارب، قال قتادة: هي منسوخة بقول الله تعالى ﴿ قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [التوبة: 29].

**قال الإمام رحمه الله:** والذي يتوجه في معنى الآية إنما يتضح مع معرفة الحال في وقت نزول الآية، وذلك أن السورة مكية من بعد الآيات العشر الأُوَل، ولم يكن في ذلك الوقت قتالٌ مفروضٌ ولا طلبُ جزيةٍ ولا غيرُ ذلك، وكانت اليهود بمكة وفيما جاورها، فرُبَّما وقع بينهم وبين بعض المؤمنينَ جدالٌ واحتجاج في أمر الدين وتكذيبٌ، فأمَرَ الله تعالى المؤمنين ألا يجادلوهم بالمُحاجَّة إلا بالحسنى؛ دعاءً إلى الله تعالى وملاينة، ثم استثنى مَن ظلم منهم المؤمنين؛ إما بفعل، وإما بقول، وإما بإذاية محمد صلى الله عليه وسلم، وإما بإعلان كفر فاحش؛ كقول بعضهم: عُزَيْرٌ ابن الله، ونحو هذا، فإن هذه الصِّنْفةَ([[35]](#footnote-35)) استُثنيَ لأهل الإسلامِ الخروجُ معها عن التي هي أحسن، ثم نُسِخ هذا بعدُ بآية القتال والجزية. وهذا قول قَتادةَ.

وقوله تعالى: **﴿ وَقُولُوا آمَنَّا ﴾** الآيةَ، قال أبو هريرة رضي الله عنه: كان أهل الكتاب يَقرؤون التوراة بالعِبْرانيَّةِ، ويُفَسِّرونها بالعربية للمسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تُصَدِّقوا أهلَ الكِتابِ ولا تُكَذِّبوهم، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**»([[36]](#footnote-36)).

**\*\*\***

**﴿ وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ (47) وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (49) ﴾**

تقدم في الآية التي قبل هذه ما يتضمن نزولَ شرع وكتاب من عند الله على أنبياءَ قبلَ محمد عليه السلام؛ فحسُن لذلك عطفُ **﴿ كَذلِكَ أَنْزَلْنا ﴾** على ما في المضمر، أي: وكما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا إليك.

و**﴿ الكِتَابَ ﴾**: القرآن. وقوله: **﴿ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ ﴾** يريد: التوراة والإنجيل، أي: فالذين كانوا في عصر نزول الكتاب وأوتوه حينئذ **﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾** أي: كانوا مصدقين بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك، فالضمير في **﴿ بِهِ ﴾** عائد على القرآن.

ثم أخبر عن معاصِري محمد صلى الله عليه وسلم أن منهم أيضًا ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾، ولم يكونوا آمنوا بعدُ؛ ففي هذا إخبار بغيب بيَّنه الوجود بعد ذلك.

ثم أنحى على الجاحدين من أمَّةٍ قد آمن سلفُها في القديم، وبعضُها في الحديث، وحصل الجاحدون في أخسِّ رتبة من الضلال، ويشبه أن يراد أيضًا في هذا الإنحاء كفار قريش مع كفار بني إسرائيل.

ثم بيَّن تعالى الحُجَّةَ على المُبطِلينَ المرتابين، وأوضح أن مما يقوِّي نزول هذا القرآن من عند الله أن محمدًا صلى الله عليه وسلم جاء به في غاية الإعجاز والطول والتضمُّن للغيوب وغير ذلك، وهو أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا يتلو كتابًا، ولا يَخُطُّ حرفًا، ولا سبيل له إلى العلم، فإنه لو كان ممن يقرأ **﴿ لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾**، وكان لهم في ارتيابهم متعلق، وأما ارتيابهم مع وضوح هذه الحجة فظاهرٌ فَسادُه.

وقوله تعالى: **﴿ بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ ﴾** إضراب عن مقدَّرٍ من الكلام يقتضيه ما تقدم، كأنه قال: ليس الأمر كما حسِبوا، **﴿ بَلْ هُوَ ﴾**.

وهذا الضمير يحتمل أن يعود على القرآن، ويحتمل أن يعود على محمَّد صلى الله عليه وسلم([[37]](#footnote-37))، ويحتمل أن يعود على أمر محمَّد صلى الله عليه وسلم في أنه لم يَتْلُ ولا خطَّ، وبكل احتمالٍ قالت فِرقةٌ.

وكونُ هذا كلِّه **﴿ آيَاتٌ ﴾** أي: علاماتٌ **﴿ فِي صُدُورِ ﴾** العلماء من المؤمنين بمحمد، يُراد به مع النظر والاعتبار.

و**﴿ الْمُبْطِلُونَ ﴾** و**﴿ الظَّالِمُونَ ﴾** قيل: يَعُمُّ لفظُهما كلَّ مكذِّب بمحمد صلى الله عليه وسلم، ولكنَّ عُظْمَ([[38]](#footnote-38)) الإشارة بهما إلى قريش؛ لأنهم الأهَمُّ. وقيل: **﴿ الْمُبْطِلُونَ ﴾**: اليهودُ.

**\*\*\***

**﴿ وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (52) ﴾**

الضمير في **﴿ وَقَالُوا ﴾** لقريش ولبعض اليهود؛ لأنهم كانوا يعلِّمون قريشًا مِثلَ هذه الحُجَّةِ؛ يقولون: لِمَ لا يأتيكم بمثل ما جاء به موسى من العصا وغيرِها؟!

فأمَرَ الله تعالى نبيَّه أن يُعلمهم أن هذا الأمر بيد الله عز وجل لا يَستنزِلُه الاقتراحُ ولا التَّمنِّي، وأنه بُعِث نذيرًا، ولم يُؤْمَرْ بغير ذلك.

ثم احتجَّ عليهم في طلبهم آيةً بأمر القرآن الذي هو أعظم الآيات، ومعجز للجن والإنس، فقال: **﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ ﴾**، ثم قرَّر ما فيه من الرحمة والذِّكْرى للمؤمنين. فقوله: **﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾** جوابٌ لِمَن قال: **﴿ لَوْلا أُنْزِلَ... ﴾**.

ثم أمر تعالى نبيَّه بالاستناد إلى أمر الله تعالى، وأن يجعلَه حَسْبَه **﴿ شَهِيداً ﴾** وحاكمًا بينه وبينهم، بعلمه وتحصيله جميعَ أمورهم.

وقوله: **﴿ بِالْباطِلِ ﴾** أي: بالأصنام والأوثان وما يتبع أمرها من المعتقدات. والباطل هو: أن يُفعل فِعلٌ يُراد به أمرٌ ما، وذلك الأمر لا يكونُ عن ذلك الفعل. والأصنام أُريدَ بأمرها الأكملُ والأنجح في زعم عُبَّادِها، وليس الأكملُ والأنجحُ إلَّا رفْضَها؛ فهي إذَنْ باطلٌ.

**\*\*\***

**﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55) ﴾**

قوله: **﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ﴾** يُرادُ به كفَّارُ قريش في قولهم: ائْتِنا بما تَعِدُنا، وغيرِ ذلك مِنِ استدعائهم -على جهة التَّعجيز والتَّكذيبِ- عذابَ الله الذي يَتوعَّدُهم محمد صلى الله عليه وسلم به.

ثم أخبر تعالى أنه يأتيهم **﴿ بَغْتَةً ﴾** أي: فجأةً، وهذا هو عذاب الدنيا، وهو الذي ظهر يوم بَدْرٍ، وفي السِّنِينَ السَّبْعِ. ثمَّ ذكر تعالى أن تأخُّرَه إنما هو حسَب الأجَل المقدور السابق.

ثم توعَّدهم تبارك وتعالى بعدُ بعذاب الآخرة في قوله: **﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ ﴾**، كرَّر فِعلَهم وقبَّحَه، وأخبر أن وراءهم إحاطةَ جهنَّمَ بهم.

وقوله تعالى: **﴿ يَوْمَ يَغْشاهُمُ ﴾** ظرفٌ يعمل فيه قولُه **﴿ لَمُحِيطَةٌ ﴾**. و**﴿ يَغْشاهُمُ ﴾** معناه: يغطيهم من كل جهة من جهاتهم.

**﴿ وَيَقُولُ ﴾** أي: ويقولُ اللهُ. وفي قراءة: **﴿ وَنَقُولُ ﴾** بالنون؛ فإما أن تكون نون العظمة، أو نون جماعة الملائكة.

وقوله تعالى: **﴿ ذُوقُوا ﴾** توبيخ، ويُشَبَّهُ مَسُّ العذاب بالذَّوقِ، ومنه قولُه: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: 49].

وقوله تعالى: **﴿ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾** أي: بما في أعمالكم من اكتسابكم([[39]](#footnote-39)).

**\*\*\***

**﴿ يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (57) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59) ﴾**

هذه الآيات نزلت في تحريض المؤمنينَ الذين كانوا بمكَّةَ على الهجرة، فأخبرهم تعالى بِسَعَةِ أرضه، وأن البقاء في بُقعةٍ على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تُلتمَسَ عبادةُ الله في أرضه.

قال سعيد بن جُبَيرٍ وعطاءٌ ومجاهدٌ -وبه قال مالكٌ-: إن الأرض التي فيها الظُّلْمُ والمنكَرُ تترتب فيها هذه الآيةُ، وتَلزَمُ الهجرةُ عنها إلى بلد حقٍّ([[40]](#footnote-40)).

وقال مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله بنِ الشِّخِّيرِ([[41]](#footnote-41)): قولُه: **﴿ إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ ﴾** عِدَةٌ بِسَعةِ الرزق في جميع الأرض([[42]](#footnote-42)).

وقوله تعالى: **﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ ﴾** تحقير لأمر الدنيا ومَخاوِفها، كأنَّ بعض المؤمنين نظر في عاقبة ما يَلْحَقُه في خروجه من وطنه أنه يموت أو يجوع ونحو هذا، فحقَّر اللهُ تعالى شأنَ الدنيا، أي: أنتم لا محالةَ مَيِّتون ومَحشورون إلينا، فالبِدارُ إلى طاعة الله عز وجل والهجرةُ إليه أَوْلى ما يُمتثَلُ.

ثم وعَدَ المؤمنين العاملين بسُكْنى الجنة؛ تحريضًا منه تعالى، وذكَرَ الجزاء الذي يَنالونه: **﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ ﴾**.

**﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾** أي: لَنُنْزِلَنَّهُم ولَنُمَكِّنَنَّهم([[43]](#footnote-43)) لِيَدُوموا فيها. وفي قراءة: **﴿ لَنُثْوِيَنَّهُمْ ﴾** مِن: أَثْوَى يُثْوي، وهو مُعَدَّى: ثَوَى، بمعنَى: أقامَ. وفي قراءة: **﴿ لَنُبَوِّيَنَّهُم ﴾** بالياء من تحت.

قوله **﴿ غُرَفًا ﴾** نُصِب بإسقاط حرف الجر، والتقدير: في غُرَفٍ.

ثم وصَفَهم تعالى بالصبر والتوكل، وهاتان جِماعُ الخيرِ كلِّه([[44]](#footnote-44)): **﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾** أي: الصبر على الطاعات، وعن الشهوات.

**\*\*\***

**﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (63) ﴾**

**﴿ وكَأَيِّنْ ﴾** بمعنى: كَمْ. وهذه الآية أيضًا تحريض على الهجرة؛ لأن بعض المؤمنين فكَّر في الفقر والجوع الذي يَلْحَقُه في الهجرة، وقالوا: غُرْبةٌ في بلدٍ لا دارَ لنا فيه ولا عَقَارَ([[45]](#footnote-45)) ولا مَن يُطعِمُ! فمَثَّلَ لهم بأكثَرِ الدَّوابِّ التي تَتَقَوَّتُ ولا تَدَّخِرُ ولا تَرَوَّى في رزقها([[46]](#footnote-46))، والمعنى: فهو يَرزُقُكم أنتم؛ ففَضِّلوا طاعته على كل شيء.

وقوله تعالى: **﴿ لا تَحْمِلُ ﴾** يجوز أن يريد من الحَمْل؛ أي: لا تَستقِلُّ([[47]](#footnote-47)) ولا تنظر في ادِّخار. ويجوز أن يريد من الحَمَالة؛ أي: لا تتكفَّلُ برزقها، ولا تَرَوَّى فيه.

ثمَّ خاطَبَ اللهُ تعالى نبيَّه عليه السلام بأمر الكفار وإقامة الحجة عليهم بأنهم إن سُئلوا عن الأمور العِظام التي هي دَلائلُ القدرة لم يكن لهم إلا التَّسليمُ بأنها لله تعالى.

و**﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾** معناه: يُصرَفون.

ونَبَّهَ تعالى على خَلْقِ السموات وخلق الأرض وتسخيرِ الكواكب وذِكْرِ عِظَمِها؛ فاقتضى ذلك ما دونه. ثم نبَّه على بَسْطِ الرِّزقِ وقَدْرِه([[48]](#footnote-48)) لقَومٍ، وإنزالِ المطر من السماء، وهذه عِبَرٌ كفيلة لمن تأمَّل بالنجاةِ والمُعتقَدِ الأقْوَمِ.

ثم أمَرَ تعالى نبيَّه بحمده على جهة التوبيخ لعقولهم، وحكَمَ عليهم بأن **﴿ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾**، ولا يتسدَّدَ منهم نظَرٌ.

**\*\*\***

**﴿ وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (64) فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) ﴾**

وصَفَ الله تعالى الدُّنْيا في هذه الآية بأنها لَهْوٌ وَلَعِبٌ، أي: ما كان منها لغير وجه الله تعالى، فأمَّا ما كان لله فهو من الآخرة، وأمَّا أمور الدنيا التي هي زائدة على الضروري الذي به قِوامُ العيشِ والقوَّةُ على الطاعات فإنما هو **﴿ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾**.

وتأمَّلْ ذلك في المطاعم والملابس والأقوال والمكتسَبات وغيرِ ذلك، وانظر إلى حاجة الغني والفقير في الأمور الضرورية، فإنها واحدة؛ كالتنفس في الهواء، وسدِّ الجوع، وستر العورة، وتوقِّي الحر والبرد، وهذه عُظْمُ أمرِ العيش([[49]](#footnote-49)).

و**﴿ الْحَيَوانُ ﴾** والحَياةُ بمعنًى واحدٍ، والمعنى: لا موت فيها.

ثم وقَفَهم تعالى على حالهم في البحر عند الخوف العظيم، فإن كلَّ بشر يَنسى كلَّ صنم وغيره ويتمسَّك بالدعاء والرغبة إلى الله تعالى.

وقوله: **﴿ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾** أي: يَرجعون إلى ذكر أصنامهم، وتعظيمِها.

وقوله: **﴿ لِيَكْفُرُوا ﴾** نُصِبَ بلام كَيْ.

وقوله: **﴿ ولِيَتَمَتَّعُوا ﴾** بكسر اللام. وفي قراءة: **﴿ ولْيَتَمَتَّعُوا ﴾** بسكون اللام على صيغة الأمر التي هي للوعيد والتهديد، والواو على هذا عاطفةٌ جملةَ كلام، لا عاطفةُ فعلٍ على فعل.

ثم عدَّد تعالى على كفار قريش نعمتَه عليهم في الحَرَم في أنه جعله لهم آمنًا لا خوف فيه من أحوال العرب وسوء أفعالهم؛ من القتل وأخْذِ الأموال ونحوه، وذلك هو التَّخطُّفُ الذي كان الناسُ بسبيله.

ثم قررهم على جهة التوبيخ على إيمانهم بالباطل، وكفرهم بالله وبنعمته، فقال: **﴿ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾**.

**\*\*\***

**﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (68) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69) ﴾**

قرَّرهم عز وجل على حال من افترى على الله كَذِبًا أو كذَّب بآياته، وهذه كانت حالهم، وأعْلَمَهم أنه لا أحد أَظْلَمُ منهم، وهذا في ضمنه وعيد شديد، ثم بَيَّنَ الوعيد أيضًا بالتقرير على أمر جهنَّمَ. والمَثْوى: موضع الإقامة. وألفاظ هذه الآيات في غاية الاقتضاب والإيجاز وجَمْعِ المعاني.

ثم ذكر تعالى حال أوليائه والمجاهدين فيه، وقرَّر ذلك بذِكْرِ الكَفَرةِ والظَّلَمة؛ ليبين تبايُن الحالتين.

وقوله: **﴿ جَاهَدُوا فِينَا ﴾** معناه: في مَرْضاتنا، وبُغْيةَ ثَوابِنا.

قال السُّدِّيُّ وغيرُه: نزلت هذه الآيةُ قبلَ فرض القتال.

فهي قبلَ الجهاد العُرْفيِّ([[50]](#footnote-50))، وإنما هو جهاد عامٌّ في دين الله، وطلَبِ مَرْضاتِه.

وقال أبو سُلَيْمانَ الدَّارانيُّ: ليس الجهادُ في هذه الآية قتالَ العدو فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمْعُ الظالمين، وعُظْمُه الأمر بالمعروف، والنهيُ عن المنكر. ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله عز وجل، وهو الجهاد الأكبر.

وقال سُفْيانُ بنُ عُيَيْنةَ لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا، فعليك بالمجاهدينَ وأهلِ الثُّغورِ؛ فإن الله يقول: **﴿ وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا ﴾**.

وقال الضَّحَّاكُ: معنى الآيةِ: **﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا ﴾** في الهجرة([[51]](#footnote-51)) **﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾** سُبُلَ الثبوت على الإيمان.

والسُّبُل هاهنا يحتمل أن تكون طُرُقَ الجنة ومَسالِكَها، ويحتمل أن تكون سُبُلَ الأعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد النَّيِّرة.

قال يوسف بن أسباط: هي إصلاح النية في الأعمال، وحبُّ التزيُّد والتفهيم، وهذا هو أن يُجازَى العبدُ على حسنة بازدياد حسنة، وبعلم يُقتدَحُ من علم متقدم، وهي حالُ مَن رضيَ الله عنه.

وباقي الآية وعدٌ: **﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾**([[52]](#footnote-52)).

كمل تفسير «سورة العنكبوت»

والحمد لله رب العالمين

**\*\*\***

1. () فهي على هذا متَّصِلةٌ. وذهب بعضهم إلى أن ﴿ أَمْ ﴾ منقطِعةٌ؛ فتُقَدَّرُ بـ "بل" والهمزةِ، وأن الإضراب انتقالٌ لا إبطالٌ. يُنظر: «الدر المصون» للسمين الحلبي (9/ 8)، «الجواهر الحسان» للثعالبي (4/ 289)، «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي = عناية القاضي وكفاية الراضي» (7/92).

   ويُنظر أيضًا: «نتائج الفكر في النحو» للسهيلي (ص: 205، 206)، «بدائع الفوائد» لابن القيم (1/ 352-360). [↑](#footnote-ref-1)
2. () لأبي حيان كلام في هذا، اطلبه في «البحر المحيط» (8/ 342). [↑](#footnote-ref-2)
3. () استمر عليها، وأبى أن ينصرف عنها. [↑](#footnote-ref-3)
4. () وهذا هو الأقوى وقول الأكثر: أنها نزلت في شأن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. بل حكى بعضهم -كنظام النيسابوري (المتوفَّى: 850 هجرية) في تفسير الآية الخامسةَ عَشْرةَ من سورة لقمان من «غرائب القرآن ورغائب الفرقان»- اتفاق المفسرين على أن هذه الآية ونظيرتها التي في «لقمان» وفي «الأحقاف» نزلت في سعد بن أبي وقاص، وفي أمِّه حَمْنةَ بنتِ أبي سُفْيانَ!

   هذا، وأخرج مسلم في كتاب فضائل الصحابة من «صحيحه» حديث رقْم (1748/43) عن مصعب بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه، أنه نزلت فيه آيات من القرآن؛ قال: «حلفَتْ أم سعد ألا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكُلَ ولا تَشرَبَ، قالت: زعمْتَ أن الله وصَّاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمُرُك بهذا. قال: مكثَتْ ثلاثًا حتى غُشيَ عليها مِنَ الجَهدِ، فقام ابنٌ لها -يُقالُ له: عُمارةُ- فسقاها، فجعلتْ تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي ﴾، وفيها: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: 15]». ويُنظر: «فتح الباري» لابن حجر (10/ 400). [↑](#footnote-ref-4)
5. () وهو أخوه لأمه، وقد ساق خبرَه الواحديُّ في «أسباب النزول»، عند ذكر سبب نزول الآية (92) من سورة النساء -جلَّ مُنزِلها-.

   ويُنظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (3/ 375)، «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» للثعلبي (7/ 272، 273)، «الهداية إلى بلوغ النهاية» لمكي بن أبي طالب (9/ 5601-5063). [↑](#footnote-ref-5)
6. () أخرجه الطبري (18/366) من رواية ابن عباس رضي الله عنهما. [↑](#footnote-ref-6)
7. () يُنظر: «تفسير الطبري» (18/365)، «تفسير ابن أبي حاتم» (9/ 3038)، «الهداية إلى بلوغ النهاية» لمكِّي (9/ 5604). [↑](#footnote-ref-7)
8. () الدَّرْك والدَّرَك -بسكون الراء وتحريكها-: التَّبِعة، يقال: ما لَحِقَك مِن دَرْكٍ فعَلَيَّ خلاصُه. [↑](#footnote-ref-8)
9. () فالمعنى على هذا: اتَّبِعوا دينَنا ونحن نضمن عنكم كلَّ ما يلزمكم من عقوبة ذنْب. وقوله: ﴿ وما هم بحاملين ﴾ أي: بضامنينَ ذلك. ينظر: «الهداية» لمكِّي (9/ 5606). [↑](#footnote-ref-9)
10. () أخرج مسلم (2674) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَن دعا إلى هُدًى؛ كان له مِنَ الأجرِ مِثلُ أُجورِ مَنْ تَبِعَه، لا يَنقُصُ ذلك مِن أُجورِهم شيئًا. ومَن دعا إلى ضلالةٍ؛ كان عليه مِنَ الإثمِ مِثلُ آثامِ مَن تَبِعَه، لا يَنقُصُ ذلك مِن آثامِهِم شيئًا**».

    وخرَّج مسلم أيضًا (1017) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنةً؛ فله أجْرُها، وأجرُ مَن عَمِلَ بها بَعْدَه، مِن غيرِ أن يَنقُصَ مِن أُجورِهم شَيءٌ. ومَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئةً؛ كان عليه وِزْرُها، وَوِزْرُ مَن عَمِل بها مِن بَعْدِه، مِن غيرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارِهم شَيءٌ**». [↑](#footnote-ref-10)
11. () طَمَّ الشَّيءُ يَطِمُّ طُمومًا: كثُر حتَّى عظُم أو عَمَّ. وطَمَّ الشَّيءَ يَطُمُّه طَمًّا: غَمَرَه وغطَّاه. [↑](#footnote-ref-11)
12. () يُنظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (4/ 487، 488). [↑](#footnote-ref-12)
13. () أخرجه عنه الطبريُّ في «تفسيره» (18/385). [↑](#footnote-ref-13)
14. () يُنظر خبر ذلك في: «صحيح البخاري» (2217، 3358)، و«صحيح مسلم» (2371). [↑](#footnote-ref-14)
15. () الأُحْدوثة: ما يُتحدَّثُ به، ويقال: صار فلانٌ أُحْدوثةً؛ إذا كثُر فيه الحديثُ. [↑](#footnote-ref-15)
16. () الحَصْباء: الحصَى. والخَذْف: الرَّمْيُ. [↑](#footnote-ref-16)
17. () أخرج كلامَه الطبريُّ في «التفسير» (18/393، 394). [↑](#footnote-ref-17)
18. () أخرج عبد الرزَّاق في «تفسيره» (3/ 5)، والطبري (9/ 3056) عن قتادةَ رحمه الله أنه تلا هذه الآيةَ: ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ﴾ ثم قال: «لا تجد المؤمن إلَّا يَحُوطُ المؤمنَ حيث كان». [↑](#footnote-ref-18)
19. () الحَيْف: الجَوْر والظُّلْم. [↑](#footnote-ref-19)
20. () عَسَا يَعسو عُسُوًّا وعَسْوًا وعَساءً وعُسِيًّا: كَبِرَ وأسَنَّ. [↑](#footnote-ref-20)
21. () قال الطبري رحمه الله (18/ 395): «أي: ساءته الملائكةُ بمجيئهم إليه؛ وذلك أنهم تَضَيَّفوه، فساؤوه بذلك، فقوله ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾: فُعِل بهم، مِن: ساءَه بذلك. وذُكِر عن قَتادةَ أنه كان يقول: ساء ظَنُّه بقومه، وضاق بضَيْفِه ذَرْعًا». [↑](#footnote-ref-21)
22. () فالمعنى على القول الأول: ولقد ترَكْنا آيةً صادرة من آثارها ومعرفة خبرها، وهي آية واضحة دائمة على طول الزمان إلى الآنَ؛ ولذلك وُصِفَت بـ﴿ بَيِّنَةً ﴾.

    وعلى القول الثاني فالمعنى: ولقد تركنا من القرية آثارًا دالَّة لقوم يستعملون عقولهم في الاستدلال بالآثار على أحوال أهلها، وهذه العلامة هي بقايا قريتهم مغمورةً بماء بحيرة لوط تَلوحُ من تحت المياه شواهدُ القرية، وبقايا لون الكبريت والمعادن التي رُجِمَتْ بها قريتُهم، وفي ذلك عدة أدلة باختلاف مدارك المستدِلِّينَ. ينظر: «التحرير والتنوير» لابن عاشور (20/ 246). [↑](#footnote-ref-22)
23. () ضعَّف هذا غير واحد من أهل العلم؛ منهم ابن كثير، قال في «البداية والنهاية» (1/ 438): «مَن زعَمَ مِن المفسرين -كقَتادةَ وغيرِه- أن أصحاب الأيكة أمَّةٌ أخرى غير أهل مَدْيَنَ فقولُه ضعيفٌ». [↑](#footnote-ref-23)
24. () قال ابن قُتَيْبةَ في «غريب القرآن» (ص: 169): «الأصل في الجُثُوم للطير والأرنب وما يَجْثُمُ. والجُثُوم: البُرُوكُ على الرُّكَبِ».

    وقال الطبري في تفسير الآية (78) من سورة الأعراف (10/ 303): «قوله: ﴿ جاثمين ﴾ يعني: سُقوطًا صَرْعَى لا يتحركون؛ لأنهم لا أرواح فيهم، قد هلَكوا، والعرب تقول للبارِكِ على الرُّكبةِ: جاثِمٌ».

    ويُنظر: «العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير» (3/ 533، 609). [↑](#footnote-ref-24)
25. () الرَّسْم: الأثر الباقي من الدار بعد أن عَفَتْ. [↑](#footnote-ref-25)
26. () دثَرَ الشيءُ دُثورًا: قَدُمَ وعفَا، أو زال وامَّحى. ودثَرَ المنزلُ: بَلِيَ وتهدَّمَ. [↑](#footnote-ref-26)
27. () لابن القيم فصل نفيس عن التزيين، التَمِسْهُ في تضاعيف الفصل الخامسَ عشَرَ من «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل». [↑](#footnote-ref-27)
28. () قال الإمام رحمه الله: «وفي هذا تعليق ﴿ يَعْلَمُ ﴾، وفيه نظر». [↑](#footnote-ref-28)
29. () هو الفارسي. يُنظر: «المسائل البصريات» له (1/ 543)، و«فتح القدير» للشوكاني (4/235). [↑](#footnote-ref-29)
30. () يُروى نحوه عن زين العابدين عليِّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب (تُوُفِّيَ سنة: 94 هـ) رحمه الله، يُنظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (1/ 151) و (4/ 184)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (12/ 482). [↑](#footnote-ref-30)
31. () صحَّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء رجُلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن فُلانًا يصلي بالليل، فإذا أصبح سرَقَ! قال: «**إنه سيَنْهاهُ ما تقولُ**».

    أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (15/ 483/ حديث رقْم: 9778)، وصحَّحه ابن حِبَّانَ (2560). ويُنظر: «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» لأبي الحسن الهَيْثَمي (2/ 258). [↑](#footnote-ref-31)
32. () أخرجه الطبري في «التفسير» (18/415). [↑](#footnote-ref-32)
33. () أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (1/ 211/ رقْم: 24) عن زياد بن أبي زياد عن أبي الدرداء موقوفًا.

    وأخرجه عن أبي الدرداء مرفوعًا: أحمدُ في «المسند» (36/ 33، 34/ حديث رقم: 21702)، وابن ماجه في «سننه» (3790)، والترمذي في «جامعه» (3377)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (1825) وصحَّح إسنادَه. [↑](#footnote-ref-33)
34. () أخرجه البخاري (7405)، ومسلم (2675) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يقول الله عزَّ وجلَّ: أنا عندَ ظَنِّ عبدي، وأنا معه حينَ يَذْكُرُني؛ فإنْ ذَكَرَني في نفْسِه ذَكَرْتُه في نفْسي، وإنْ ذَكَرَني في مَلَإٍ ذَكَرْتُه في مَلَإٍ خيرٍ منه، وإنِ اقتَرَبَ إلَيَّ شِبرًا تقرَّبْتُ إليه ذِراعًا...**» الحديثَ. [↑](#footnote-ref-34)
35. () أي: الطائفة. [↑](#footnote-ref-35)
36. () أخرجه البخاري (4485، 7362، 7542). [↑](#footnote-ref-36)
37. () على هذا القول ففي معنى الكلام قولان؛ أحدُهما: أنَّ المعنى: بل وِجدانُ أهلِ الكتابِ في كتبهم أنَّ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم لا يكتُبُ ولا يَقرأُ، وأنَّه أُمِّيٌّ: آياتٌ بَيِّناتٌ في صدورهم. وهذا مذهب ابنِ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكِ، وابنِ جُرَيجٍ.

    الثَّاني: أنَّ المعنى: بل محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ذُو آياتٍ بَيِّناتٍ في صدور الَّذين أُوتوا العِلمَ مِن أهلِ الكِتابِ؛ لأنَّهم يَجِدونه بنَعتِه وصِفَتِه. قاله قَتادةُ. ينظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (3/410). [↑](#footnote-ref-37)
38. () عُظْمُ الشَّيءِ: أكثَرُه. [↑](#footnote-ref-38)
39. () قيل: جعل ذلك عَيْنَ ما كانوا يعملون؛ للمبالغة بطريق إطلاق اسم المُسَبَّبِ على السَّبب؛ فإن عملهم كان سببًا لجعلِ الله إيَّاهُ سببًا لعذابهم.

    وقيل: معنى: ﴿ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾: جزاؤُه؛ لأن الجزاء لَمَّا كان بقدر المَجْزيِّ أُطلِق عليه.

    يُنظر: «تفسير الرازي» (25/ 68)، «التحرير والتنوير» لابن عاشور (21/ 21). [↑](#footnote-ref-39)
40. () يُنظر: «تفسير الطبري» (18/ 433-435)، «معاني القرآن وإعرابه» للزَّجَّاج (4/ 172)، «تفسير ابن أبي حاتم» (9/ 3075، 3076). [↑](#footnote-ref-40)
41. () تُوُفِّيَ رحمه الله سنة خمس وتسعين للهجرة. يُنظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (4/ 190). [↑](#footnote-ref-41)
42. () رجَّح الطبري القول الأولَ المرويَّ عن ابن جُبَيرٍ وغيره، قال في «جامع البيان» (18/ 435): «وأَوْلى القولين بتأويل الآية قولُ مَن قال: معنى ذلك: إن أرضي واسعة، فاهرُبوا ممَّن منعكم من العمل بطاعتي؛ لدَلالة قولِه: ﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ على ذلك، وأن ذلك هو أظهَرُ مَعْنَيَيْهِ؛ وذلك أن الأرض إذا وصَفَها بسَعةٍ فالغالب مِن وصفِه إيَّاها بذلك أنها لا تَضِيقُ جميعُها على مَن ضاق عليه منها موضعٌ، لا أنه وصَفها بكثرة الخير والخِصْبِ». [↑](#footnote-ref-42)
43. () من قولهم: بَوَّأْتُه منزلًا، أي: أنزَلْتُه، ومكَّنْتُ له فيه. والمَباءَةُ: المَنزِلُ. [↑](#footnote-ref-43)
44. () أي: الصبر والتوكل على الله وتفويض الأمور إليه جامعان للخُيُور كلِّها، شاملان لها. وجِماعُ كلِّ شيء وجُمَّاعُه: مُجتمَعُ أصْلِه. [↑](#footnote-ref-44)
45. () العَقَار: الأرض والضِّياع والنخل وكل مِلْكٍ ثابتٍ له أصلٌ، وهو بتخفيف القاف كما ترى، وأمَّا بتشديدها (عَقَّار) -بزِنَةِ: عطَّار- فواحد العقاقير، وهي أصول الأدوية. [↑](#footnote-ref-45)
46. () أي: لا تنظر في أمر الرزق ولا تفكِّر فيه. [↑](#footnote-ref-46)
47. () استقَلَّ الشَّيءَ: حمَلَه ورفَعَه. ووقع في بعض النسخ عِوضَ: «ولا تستقل»: «ولا تنقل»، وهي التي اعتمدها أبو حيان في «البحر المحيط». [↑](#footnote-ref-47)
48. () أي: تضييقه وتقتيره وتقليله. [↑](#footnote-ref-48)
49. () أي: معظمه وأكثره. [↑](#footnote-ref-49)
50. () قال ابن جُزَي في «التسهيل لعلوم التنزيل» (2/ 129): «﴿ وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا ﴾ يعني: جهاد النفس؛ من الصبر على إذاية الكفار، واحتمال الخروج عن الأوطان، وغير ذلك. وقيل: يعني القتالَ، وذلك ضعيف؛ لأن القتال لم يكن مأمورًا به حين نزول الآية». [↑](#footnote-ref-50)
51. () قال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (21/ 37): «في قوله: ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ إيماءٌ إلى تيسير طريق الهجرة التي كانوا يتأهَّبون لها أيامَ نزول هذه السورة». [↑](#footnote-ref-51)
52. () أي: وإن الله لَمَعَ مَن أحسن مِن خلقه، فجاهد فيه أهلَ الشرك، مُصَدِّقًا رسولَه فيما جاء به من عند الله؛ بالعَونِ له، والنُّصرةِ على مَن جاهَدَ مِن أعدائه. قاله الإمام الطبري في «جامع البيان» (18/ 444). [↑](#footnote-ref-52)